

لغة الأشجار



لقد تعلّمت الإنصات إليها، أسمع حفيظ الأوراق وأراقص الأغصان وأسامر الجذوع... أها مسها إن هي همست وأردّد معها إن هي دندنت وأرببت عليها إن هي لمست. أو تتعجّبون؟ حسناً... قفووا معي وسط الغابة، صفّروا، صفّروا جيداً! أنصتوا جيداً! أتسمعون صوت الأشجار؟ هذا صوت تناوب كأنّ أحدهم استفاق من نومه للتو... وهذا صوت شهيق تليه مجموعة من الأصوات المختلفة: دقات سريعة ومنتظمة كأنّ قلباً ينبعض في مكان ما من الأرض... أتجذبكم طقطقات الأغصان وهي تتنفس، وحفيظ ارتجاد الأوراق، أم الهمس المكتوم للحاء الجذوع وتمدد الجذور؟ تلك الأصوات على تنوعها هي أشبه بحروف هائمة على وجهها في الهواء بانتظار مَن يفك شيفرتها ويعيد تركيبها... عندها ستعرف كيف تحاكى الأشجار، وعندها فقط ستتمكن الأشجار من رؤيتك.

فالأشجار ليست عمياً بل تملك عيوناً في كلّ مكان، لكنّها لا تفتحها أمام الغرباء؛ فهي تخافهم وتخجل منهم. أنا تعلّمت كيف أجعلها تفتح عيونها لتراني وطمئن إلى، تحدّثني وأستمع إليها... يكفي أن أقف وسط الغابة وأصفّر بصوت خافت وجميل؛ عندئذ أرى الأشجار وهي تفتح عيونها ببطء كالحلزونة. أتعلمون؟ إنّ عيونها متعددة الألوان: صفراء وحمراً وخضراء وسوداء وزرقاء.

كما أنّ لكلّ منها نظرة خاصة بها، فنظرية شجرة البلوط ناقبة وجوديّة، نظرة واحدة منها قادرة على جعلك ترتعش. إنّها الشجرة التي لا تنفكّ تنظر ليلاً إلى السماء، لذا فهي تعرف كلّ أسرار القمر والنجوم. أمّا شجرة الحور فنظرتها مرحة تشعّ بالحياة، تحبّ أن تلهو مع الشمس وانعكاساتها على الأشجار الأخرى. هناك أيضًا شجرة الأرز، هي أكثر الأشجار ثرثرة، لأنّها لا تنفكّ تخبر القصص القديمة والحكايات التي مرّت في حياتها. هناك أيضًا أشجار الغار وأشجار الجوز واللوز والدلب والصفصاف والتين والزيتون.

وهناك أشجار السرو التي تفضّل الصمت في معظم الأحيان، وإذا تكلّمت، فلا تكثر الكلام؛ فهي تحرس الغابة... عندما يقترب غريب منها تبدأ بهزّ أبرها ويصدر ذلك صوت حفييف كأنّها ستمطر؛ وهذا إنذار إلى عائلة الأشجار... إنذار بوجود خطر... فتصمت كلّ الأشجار وتصبح في حالة تأهّب... ثمّ تغمض عيونها وتنسدل أغصانها وتختفي في عداد الأموات... بانتظار صديق آخر ومحاكاة جديدة.